الفصل الرابع

عالَميَّة القُرآن وكونه منهاجاً لحياة الإنسان

إنَّ الله تعالى أنزل القرآن الكريم ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: 89]، كما قال مُنزِّله سبحانه. فهو منهاج للفرد، ودستور للجماعة، منهاج عملي يتضمّن الأصول المُوَجِّهة لحياة الفرد، وعلاقته بالرب سبحانه، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأمته المسلمة، وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين، مِمَّن يُسالِمُونَه ومِمَّن يُحارِبُونَه.

1 ـ علاقته بالله تعالى: أن يعرف أنه ربّ العالمين، خالق كل شيء، وأنه خلق الإنسان لعبادته وطاعة أوامره واجتناب معاصيه، يعبده ولا يشرك به شيئاً:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: 11-15].

وقد بيّن القرآن أن الله خلق الكون بسماواته وأرضه ليعرفه الناس بأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]. فإذا عرفوا الله تعالى توجَّهوا إليه بالعبادة، التي خلقهم لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. وتتمثل هذه العبادة في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحَجِّ البيت، وذِكْر الله ذكراً كثيراً، وتسبيحه بكرة وأصيلاً. ولا تتم هذه العبادة إلا بأن يُحِلّ ما أَحَلَّ الله، ويُحَرِّم ما حَرَّم الله، وأن يقف عند حدود الله في أمره ونهيه، قائلاً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285].

وعلاقته بالكون: أن يتأمله وينظر فيه ليهتدي به إلى خالقه ومبدعه: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ

﴿ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]. ثم يستخدمه فيما يعينه على مهمته.

إنها علاقة الخليفة بما استُخلِف فيه وما سُخِّرَ له. فهذا الكون عُلْوِيُّه وسُفْلِيُّه سُخِّرَ للإنسان ليستخدمه وينتفع به، ويعمر أرضه، ويحكم فيه بالحق والعدل. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13]. وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]. وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. وقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. ومعنى ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أي طلب إليكم أن تعمروها.

ولا يجوز في منطق القرآن أن ينقلب الكون ـ الذي هو مسخر للإنسان ـ إلى إله معبود للإنسان، كما فعلت الوثنيات المختلفة، التي قلبت الحقائق، وأضلّت الإنسان عن سواء السبيل.

2 ـ **وعلاقة الإنسان بالحياة الدنيا**: أن يتّخِذَها مَزْرَعَةً للحياة الأخرى، وأن يستمتع بطيباتها دون أن يجعلها له غاية، وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش فيها أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وبذا يجمع الحسنتين، ويسعد في الدارين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]. ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201]. وفي وصية قوم قارون له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

وبهذا ينهج المسلم النهج الوسط، بَيْنَ المادِّيِّين الذين يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]. وبين المغالين في المثالية، مثل البرهمية الهندية، أو البوذية الصينية، أو المانوية الفارسية، أو الرواقية اليونانية، والرهبانية النصرانية، وغيرهم من الذين حَرَّموا طيّباتِ ما أَحَلَّ الله لهم، وعطّلوا ما وهب الله لهم من طاقات لم يستغلّوها في عَمارة الحياة.

3 ـ **وعلاقة الإنسان بنفسه**: أن يُوَجِّه قواها كلها في عبادة الله وطاعته، بطلب

الحق، وفعل الخير، ومجاهدة الباطل والشر، وأن يوازن بين مواهبها وملكاتها.

والصراط المستقيم: أن يُزكّي عقله وروحه، ويجمع بين الأمرين: العلم والإرادة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولهذا عني القرآن بالدعوة إلى العقل والفكر، في آيات لا تكاد تحصى. ويكفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبإ: 46].

كما عني بالدعوة إلى تزكية النفس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 7-10].

4 ـ وعلاقة الإنسان بأسرته: رسمها القرآن في مثل قوله تعالى في العلاقة الزوجية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228].

كما رسم علاقة الأولاد بوالديهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء: 23-24]. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15].

وأشار إلى علاقة الآباء بأولادهم بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]. وبمثل دعاء عباد الرحمٰن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

والأسرة في نظر القرآن هي الأسرة الواسعة المُمْتدَّة التي تشمل الإخوة والأخوات، بل الأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، من أُولي القُرْبَى والأرحام، وقد قال تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 75].

5 ـ وعلاقته بجيرانه وجماعته المسلمة من حوله: رسمها في مثل قوله تعالى في

آية الحقوق العشرة: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

كما رسمتها آيات أخرى كثيرة، وضعت الآداب الرفيعة التي ترقى بالناس في تعاملهم بعضهم مع بعض من أدب الخطاب، وأدب المشي، وأدب المجلس، وأدب التزاور، وغيرها.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 63].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: 11].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النور: 27-28].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ [النور: 30-31].

6 ـ وعلاقته بأُمَّته الكبرى ـ أُمَّة الإسلام -: أن ينصح لها، ويعتبر نفسه جزءاً منها، يُعطيها ويأخذ منها، ويغار عليها، ويذود عنها، داعياً إلى الخير آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مُجاهِداً في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71]. وللأمة كلها حق عليه ـ وخصوصاً الضعفاء من فئاتها المختلفة، مثل اليتامى والمساكين وابن

السبيل ـ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26] وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 34].

وعلى الإنسان المسلم أن يكون ولاؤه لأمّته، المُنْبَثِق من ولائه لله ولرسوله، وأن يُعادي مَنْ يُعاديها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 55-56].

7 ـ وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين: رسمتها آيتان من كتاب الله هما بمثابة الدستور في تحديد العلاقات بين المسلمين وغيرهم. يقول تعالى في سورة الممتحنة:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: 8-9].

فللمسالمين من غير المسلمين: القسط، وهو العدل الذي يحبُّه الله ويحبُّ أهله، والبِرّ، وهو الإحسان، وهو أمر فوق العدل.

أما غير المسلمين ـ ممن قاتَلوا المُسْلِمين في دينهم، وأَخْرَجُوهم من أوطانهم ـ فلهم ما يَسْتَحِقُّونَهُ من الجهاد ومناصبة العداء، ورفض الولاء: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وفيهم يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وإذا كان المسالمون من غير المسلمين، لهم البِرّ والإقساط بصفة عامّة، فإن لأهل الكتاب منهم بصفة خاصة حقًّا أوكد، وصلة أوثق. وحسبك أن القرآن أجاز

مؤاكلتهم ومصاهرتهم، أي أكل ذبائحهم، وتزوُّج نسائهم، وفي هذا ما فيه من توثيق عـرا الـمـودة: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾ [المائدة: 5].

القرآن دستور الحُكم للنّاس

وكما أن القرآن منهاج لحياة الإنسان المسلم، فهو كذلك منهاج، أو دستور للحُكم وللسياسة في حياة الجماعة الإسلامية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105].

وإذا كان من شأن الدستور أن يتضمن القواعد الأساسية والتفصيلات، فكذلك القرآن: اهتم بإرساء الأصول والركائز للسياسة والحُكم الإسلامي.

وأوّل هذا الأصول: الإيمان والرضا بالله تعالى حاكِماً لعباده، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] فهو وحده الرب الخالق الذي يملك حق التشريع لعباده وحق التحليل والتحريم، وليس لأحد سواه من مخلوقاته أن يُنازِعَه هذا الحق، فيتعبَّد الناسَ ويُخضعهم لحُكمه وسُلطانه، وما الحاكم في الأرض إلا مسؤول عن تنفيذ حكم الله في الناس، والله وحده هو الذي يُحِلّ لهم، ويُحرم عليهم، يأمرهم وينهاهم. ونعني بهذه الحاكمية: الحاكمية الأمرية التشريعية العليا. أما التفصيلات والتطبيقات الآنِيَّة والبِيئيّة، فهي متروكة لاجتهاد المجتهدين، وعقول المسلمين، لا حجر عليهم فيها، ولا إلزام لهم بشيء، إلا أن يكون اجتهادهم في ضوء الأصول المَرْعِيّة المقطوع بها. وبذلك تُرَدُّ الظنّيات إلى القَطْعِيات، والمُتَشَابِهات إلى المُحْكَمَات.

والقرآن ذاته هو الذي أوجب الإيمان بهذه الحاكمية الإلٰهية، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114].

وقال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

وقال على لسان يوسف: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40].

وينكر القرآن على جماعة من المنافقين صُدودَهم عن حُكْم الله تعالى ورسوله،

مع ادّعائهم الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: 60-61]. . . إلى أن يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 60 ـ 65].

فتراه قد وصف هؤلاء بالنفاق، وأقسم على نفي الإيمان عنهم حتى يرضوا بحكم رسول الله ﷺ، ومن باب أولى الرضا بحكم الله جل شأنه.

وفي سورة أخرى يصف جماعة أخرى تأخذ من حكم الله ما يُعجبها ويروقها، أو ما ترى أنه في صالحها، وترفض ما ليس كذلك، وليس هذا شأن المؤمنين. يقول تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: 47-51].

فنفى الله عنهم الإيمان بقوله: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم بيّن حقيقة موقف المؤمنين، وهو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله.

الحكم بما أنزل الله:

وإذا كان مفروضاً على المؤمنين أن يُذْعِنُوا لحكم الله ورسوله، وأن يقولوا إذا دُعُوا إليه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ حتى يفوزوا ويفلحوا، فكذلك يجب على الذين يتَوَلَّوْن الحُكْمَ أن يَحْكُموا بما أنزل الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: 48].

وقال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ

عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۚ﴾ [المائدة: 49]. ومعنى هذا: أن تحكيم (جميع ما أنزل الله) فريضة، ولا يجوز في منطق الإيمان قبول بعض أحكام الله المنزلة ورفض بعضها. ولهذا حَذَّرَ من الذين يُحاولون أن يَفْتِنُوه عن بعض ما أنزل الله، حتى لا يقع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، فقرّعهم الله على ذلك تقريعاً بليغاً.

وادَّعَى بعضهم أن الذين أمرَ اللهُ رسولَه أن يَحْكُمَ بينهم بما أنزل الله هم أهل الكتاب، كما يدلّ سياق الآيات في سورة المائدة، وليسوا هم المسلمين!!

وهذه الدعوى عجيبة! إذ ليس من المعقول أن يحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل الله من القرآن، ولا يحكم به بين المسلمين بالقرآن الذي أنزله الله عليهم، وشرَّفهم به، وأمرهم بتلاوته وحفظه واتباعه والإذعان لحكمه!!

ومثل ذلك يُقال عن الآيات التي جاءت في هذه السورة نفسها، دامغة من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر، والفسوق، والظلم في آيات ثلاث في سياق واحد، لا مهرب منها. وكمال قال الشاعر:

فلو كان رمحاً واحداً لاتَّقيته ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ!

وأعني بهذه الآيات قوله تعالى بعد حديث عن التوراة وأهلها: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]. وبعد حديث عما كتبه الله من قصاص في التوراة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45]. وبعد حديث عن الإنجيل قال: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

وقد تَمَلَّص بعضهم من الحكم الدامغ الحاسم الذي تضمّنته هذه الآيات، بأنه جاء في شأن أهل الكتاب، ولم يَجِئ في شأن المسلمين!

يريد هؤلاء أن يقولوا: إنَّ ما أنزل الله على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل يجب القضاء به والنزول على حكمه، وإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، أو جامعين بين هذه الصفات. أما ما أنزل الله على المسلمين، فليس فرضاً عليهم أن يحكموا به، وإذا أعرضوا عن الحكم به لم يوصفوا بما وصف به أهل الكتاب المعرضون عما أنزل عليهم، من الكفر والظلم والفسوق!!

ومقتضى هذا: أن ما أنزل الله على المسلمين هو دون ما أنزل الله على أهل الكتاب! إذ يجوز للمسلمين أن يفرِّطوا فيه، وينأوا بجانبهم عنه، ولا يُتَّهَمُوا بِكُفْرٍ ولا ظُلْمٍ ولا فِسْقٍ، بخلاف أهل الكتاب! فهل يقول ذلك عاقل؟! هل يُعْتَبر القرآن المعجز المبين الخالد المحفوظ أَقَلُّ قدراً عند الله من الكتب الأخرى التي لم تتصف بالإعجاز ولا الخلود؟

أو يريد هؤلاء أن يقولوا: إن أهل الكتاب إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، وُصِفوا بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعاً، أما المسلمون إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، فلا يوصفون بذلك؟! ومعنى هذا الكلام: أن الله تعالى يكيل بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغير المسلمين، فرغم وَحْدَة الجريمة عند الفَريقَيْن لا يَتَّحِدُ الجزاء والحُكْم عليهم. كأن الله تعالى يحابي المسلمين، ويُشَدِّد على غير المسلمين، فأين عدل الله؟ وهو القائل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: 123].

وهذا ما لاحظه الصحابة ﷺ وأنكروه بعبارات بليغة على من قاله، فقد سمعت هذه المقولة في عصرهم: أن الآيات في أهل الكتاب!

روى أبو جعفر الطبري في تفسيره: أنّ رجلاً سأل حُذَيْفَة بنَ اليَمَان ﷺ عن آيات سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾... ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾... ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقيل لحذيفة: إنها في بني إسرائيل. فقال حُذَيفة: نِعْمَ الإخْوَةُ لكم بنو إسرائيل، أنْ كانت لهم كُلُّ مُرَّة، ولكم كل حُلْوَة[1]!.

على أن المُحَقِّقين من عُلماء الأصول ذهبوا إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإذا كان السبب هنا خاصاً بأهل الكتاب فاللفظ عام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ بحيث يشملهم ويشمل غيرهم ممن يشاركهم وصفهم.

---

(1) تفسير الطبري: الأثر رقم (12030) وقد روى نحوه الحاكم في «مستدركه» 2/ 312، 313. وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وهذا واضح من الاستعمال اللغوي حتى خارج القرآن. فإذا افترضنا أن حاكماً خانَ وَطَنَهُ، وَوَالَى عَدُوَّه، فثار عليه الشعب وخلعه، وقلنا في ذلك: فلان خان وطنه فثار عليه شعبه، ومن خان الوطن ثار عليه الشعب، فالجملة الأولى خاصة بفلان هذا، ولكن الجملة الأخيرة لها صفة العموم بحيث يدخل في حكمها كل خائن لوطنه.

وهناك مَن يقول: إن الحُكْم المراد هنا هو حُكْمُ القُضَاة الذين يَفْصِلون بين الناس، ولا يدخل في ذلك الأُمَراء والرُّؤَسَاء والمُلوك الذين يُدِيرُونَ دَفَّة السياسة الداخلية والخارجية على غير ما أمر الله!!

وهذا أمر لا ينقضي منه العجب! لماذا يكون القاضي الذي لا يحكم بما أنزل الله كافراً أو ظالماً أو فاسقاً، والأمير أو الرئيس الذي يَسُوسُ الناس بغير ما أنزل الله مُبرَّءاً من ذلك؟ الحق أنَّ كليهما لم يَحْكُم بما أنزل الله.

ثم إنَّ الرئيس أو الأمير هو الذي يُعَيِّنُ القاضي، ويُلزِمُه أن يَحْكُمَ بالشرع أو القانون الوضعي، فهو ـ من باب أولى ـ داخل فيما ذَكَرَتْهُ الآياتُ الكريمة. فهو يبوء بوزره ووزر من ولاّه القضاء بغير ما أنزل الله.

ومثل ذلك المجالس التشريعية والبرلمانات التي تَسُنُّ للناسِ القوانين والدساتير والتشريعات، فإن كانت مُسْتَمَدَّة من القرآن، فهم مُثَابُونَ مَأْجُورُون، وإن كانت مخالفة للقرآن، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها.

وهذا ما ذهب إليه كل فُقَهاء العصر: ومنهم العلاّمة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[1]، وغيره.

ماذا أنزل الله؟

ويحسن بنا أن نُنَبِّهَ هنا على معنى يغيب عن الكثيرين ممن كتبوا في هذه القضية، وهو: ما المقصود بـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الذي نطقت به الآيات التي أوردناها من سورة المائدة؟ الكثيرون يفهمون منها: النص الإلٰهي الذي أنزله الله على رسوله، وهو

(1) انظر: «الفتاوى» للشيخ شلتوت، ص: 43 طبعة (دار الشروق) الثامنة.

بالنسبة لنا ـ نحن المسلمين ـ القرآن الكريم. وهذا صحيح بلا ريب، فهذا الكتاب قد أنزله الله تعالى على رسوله، كما بيّنت ذلك الآيات الوفيرة من كتاب الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 41-42]. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: 114]. ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: 77-80]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: 23].

إلى غير ذلك من الآيات في مَكِّيّ القرآن ومَدَنِيّه، وهي قاطِعَةٌ بأن القرآن مُنْزَلٌ من عند الله تبارك وتعالى.

ولكن الله تعالى كما أنزل «الكتاب» أنزل «الميزان». فـ «الكتاب» يُمَثِّل النَّصَّ الإلٰهي الذي يُرْجَعُ إليه في وضع الأُسُس، وتُبَيِّن الأصول، ورسم المنهج. و«**الميزان**» هو الذي يُرْجَع إليه في شرح تلك الأسس والأصول وتطبيقها على الواقع. فهو يُجَسِّد ما تشهد به الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، والأقْيِسَة الصحيحة، مِنْ إقامة العَدْل، وغَرْسِ الفضائل، وتَيْسِير الحياة الطيبة للناس، والحفاظ على الثروة المادية والبشرية، وعلى البيئة وغيرها.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]. وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

وفي سورة الرحمٰن يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمٰن: 7-9].

فما هذا «**الميزان**» الذي قرنه الله تعالى بالكتاب حيناً، وقرنه برفع السماء حيناً آخر، وأمرنا ألا نطغى فيه ولا نخسره، وأن نقيم الوزن بالقسط؟ هل هو الميزان الحديدي الذي توزن به البضائع؟

ذهب إلى ذلك بعض المُفسّرين، ولكن هذا يُقرَن بالكيل لا بالكتاب، ثمّ لا يبلغ شأنه مبلغ الميزان المذكور في مطلع سورة الرحمٰن، والمقرون برفع السماء مسكن الملائكة، ومصدر الوحي الإلٰهي.

لا بد أن يكون إذن ميزاناً معنويّاً تُوزَن به الأفكار لا الأشياء، والحقائق لا الحقائب، والمعاني لا الصور، ميزاناً تَقَوَّم به العقائد والأخلاق والأعمال والأشخاص، والأنظمة والمذاهب.

وأقرب عبارة لتحديد معنى هذا الميزان والله أعلم بمراده: أنه العَدْلُ، والفِطْرَة السليمة، والقِيَم والمقاييس الإنسانية السليمة التي تهتدي بالكتاب الإلٰهي لمعرفة الحق، قياساً للأمر بنظيره، وردًّا للفرع إلى أصله.

وقد جاء عن قتادة ومجاهد وغيرهما من المفسّرين أن الميزان في الآية: هو العدل. واختاره ابن جرير شيخ المفسرين، وأيده ابن كثير قائلاً[1]: وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: 17]. وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وقال بعض الحكماء: «العدل ميزان الله في الأرض، وضعه للخلق، ونصبه للحق».

وبهذا نعلم أن الشرائع السماوية كلها جاءت لتضع للناس ميزاناً خُلُقِياً ثابتاً، غرس الله تعالى أصوله في فِطَرِهِم وعُقُولِهِم، ميزاناً يتحاكمون إليه، إذا أعوزهم النصُّ من الكتاب الإلٰهي.

وبهذه الآية استدلَّ الفُقهاء الذين يستعملون الرأي والقياس في معرفة الأحكام الشرعية، وبيّنوا أن النص الصريح لا يخالف القياس الصحيح، وأن الشرع لا يُفَرِّق بين متماثِلَيْن، كما لا يسوِّي بين مُخْتَلِفَيْن. فقد ثبت أن الله أنزل «**الكتاب والميزان**» فكلاهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان. وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه، ولا يتناقض الكتاب والميزان، فلا

(1) «تفسير ابن كثير» 4/ 414 طبعة عيسى الحلبي.

تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، بل كلها تتصادق متعاضدة متناصرة، يصدق بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض، فلا يناقض القياس الصحيح النص الصحيح أبداً.

وبهذا نعلم أن الله تعالى كما أنزل «الكتاب» أنزل «الميزان». ولذا يجب أن نحكم بهما كليهما. وبهذا يلتقي الوَحْي والعَقْلُ، أو الدينَ والعِلْمَ، لِيَكُونَ منهما **«نور على نور»**.

القرآن دستور الدعوة إلى الله

والقرآن له وظيفة أخرى في الحياة الإسلامية، إلى جوار كونه منهاج العمل لحياة الفرد المسلم، وقانون الحكم والتشريع للمجتمع المسلم، أو للدولة المسلمة، هو كذلك دستور الدعوة إلى الإسلام.

عالمية القرآن:

فهو كتاب عالمي، مُوَجَّهٌ إلى الناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، وإن نزل بلسان العرب. ومَنْ قرأه وتَدَبَّره يَلْحَظ فيه هذه العالميَّة ما بين أول آية بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وآخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: 1-3].

فهذا هو القرآن يتحدَّث عن الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أو ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لا ربّ العرب ولا ربّ إسرائيل! كما تقول التوراة.

ونداءات القرآن المُوَجَّهة من الله تعالى، لا تحمل أي طابع عنصري أو إقليمي أو طبقي، لأنها إما موجهة إلى (الناس) كافة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. وقد وُجِّهَ هذا النِّداءُ إحدى وعشرين مرّة في القرآن.

ومثله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وقد وُجِّه مرّتين في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾

[الانفطار: 6]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

ومثلها ما وجه إلى ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ مثل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. وقد جاء هذا النداء خمس مرات في القرآن.

ومثلها ما وُجِّه إلى «العِباد» مضافين إلى الله تعالى بياء المتكلم ﴿يَٰعِبَادِ﴾ وهي إضافة تشريف وتكريم مثل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56]. أو إضافة إيناس وتقريب، مثل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]. وقد وُجِّه هذا النداء في القرآن خمس مرات.

وإمَّا مُوَجَّهَةٌ إلى أهل الشرائع السماوية السابقة من اليهود والنصارى. وقد اختار القرآن صيغة تؤنسهم وتقربهم، وهي ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مثل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64]. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71]. وقد تكرَّرت اثنتي عشرة مرة.

وإمّا مُوَجَّهَة إلى (الذين آمنوا). وهذه الصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لم تُعْرَف إلّا في القرآن المدني، بعد أن أصبح للمسلمين جماعة وكيان مستقل. وقد جاءت في القرآن أكثر من تسعين مرة.

وهذه النداءات كانت جديدة على العالم، وقد قرعت سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس لا يتنادون إلا بـ (يا بني فلان) أو (يا عرب) أو (يا عجم). أما النداء بصيغة الإنسانية أو الإيمان، فلم يكن لأحد به عهد.

وقد أعلن القرآن عالَمِيّة دعوته، وأعلن الرسول الكريم عموم رسالته من أول يوم. فهي رسالة عامّة في المكان والزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان.

وأول ما أتيحت الفرصة للرسول الكريم بعث برسائله إلى ملوك العالم وأُمَرائِه: قيصر الروم، وكسرى الفرس، ونجاشي الحبشة، وأمراء الشام ومصر وغيرهم، يدعوهم إلى أن يُسَلِمُوا لِيَسْلَمُوا في الدنيا والآخرة، وتَسْلَم معهم شعوبهم؛ وإلا تَحَمَّلوا إِثْم هذه الشعوب التي يَحْكُمونها، ويَحُولُونَ بينها وبين الهداية.

وقد ختم رسائله إلى قيصر وأمراء أهل الكتاب بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

دعوى بعض المستشرقين خصوصية الدعوة بالعرب

هذا، وقد زعم بعض المستشرقين: أن محمداً ﷺ لم يُفكّر في المراحل الأولى للدعوة ـ أي طوال العهد المكي، وسنوات من العهد المدني ـ في عالمية الدعوة، إنما كان ينظر إليها باعتبارها دعوة للعرب، أي لمكّة ومن حولها من القبائل في جزيرة العرب. ولم يفكّر في دعوة الأمم الأخرى إلا بعد أن استتبَّ له الأمر في المدينة، وصالَحَ قُريشاً صلح الحديبية المعروف، وأخذ يكتب رسائله إلى كسرى وقَيْصَر والمُقَوْقَس والنَّجَاشِي، وغيرهم.

وقد اعتمدوا في تأييد هذه الدعوى على بعض آيات من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: 7]. وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ﴾ [الأنعام: 92].

ولو تتبّع هؤلاء ما ورد في القرآن حول هذا الموضوع، لوضح لهم الحق وضوح الصبح لذي عينين ـ لو أرادوا معرفة الحق ـ ووجدوا من الآيات الصريحة الناطقة بعالمية الرسالة المحمدية ما يدحض كل دعوى مخالفة، ويزيل كل ريب أو سوء فهم ناشيء من النظر الجزئي في بعض الآيات التي لا تدل على ما أرادوا.

والعجيب أن الآياتِ المُصرّحة بعالمية الرسالةِ كُلّها من القُرآن المكي بإجماع أهل العلم مثل قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 87].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: 52].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

ونحوها من الآيات:

وأيّدها قوله ﷺ: «**وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ كافّة**»[1].

أما بعض الآيات مثل آية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، وآية ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فهذه مراحل الدعوة، والتدرُّج فيها. أما عالمية الدعوة، فلا يَتَطرَّق إليها رَيْبٌ ولا اشْتِباه، والنصوص صَريحَة قاطِعَة في شأنها، ويكفي ما ذكرناه منها.

ترجمة معاني القرآن إلى غير العرب:

وإذا كان القرآن عالمي الوُجْهَة - وهو في الوقت نفسه عربي اللسان - فالواجب على العرب من أمة القرآن ترجمته إلى غير العرب، نشراً لدعوته، وتبليغاً لرسالته، حتى لا تكون للناس عليهم حجَّة.

(1) متفق عليه من حديث جابر كما في اللؤلؤ والمرجان (299).